الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة وهران
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

آراء ابن حزم اللغوية وأثرها في التفسير

مذكرة لنيل درجة الماجستير في اللغة والدراسات القرآنية

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمد زعراط

إعداد الطالب:

عبد القادر بوعصابة

السنة الجامعية 2006– 2007

كلمة شكر وتقدير

يسرني أن أتقدم بالشكر لله – الواحد الأحد-

ولوالدي؛

قال الله تعالى: "...أن أشكر لي ولوالديك إلي المصير"،

ثم إلى كل من ساعدني في هذا البحث ولو بالكلمة الطيبة،

وإلى القائمين على مكتبة المعهد والمكتبة المركزية والمكتبات العمومية...؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس"،

وإلى القائمين على معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية عموما

وأخص بالذكر القائمين على القسم الذي أتشرف بالانتماء إليه – قسم الحضارة الإسلامية- : أ.د عبد المجيد بن نعمية ، أ.د محمد بن معمر، أ.د الجيلالي سلطاني...

ثم إلى أساتذتي للسنة الأولى ماجستير؛ الذين كان لي الحظ أن أجلس إليهم أتعلم منهم: أ.د محمد زعراط ، أ.د محمد بن حمو ، أ.د لخضر لخضاري، أ.د محمد تحريشي ، أ.د العربي قلايلية ، أ.د الجيلالي سلطاني ، أ. أوحميش.

وإلى الأستاذ الدكتور بكري الذي كان السباق إلى فتح مشروع الدراسات القرآنية ،

وإلى الأستاذ الدكتور محمد زعراط الذي جمع في مشروع واحد بين اللغة والدراسات القرآنية، و هي سنة حسنة أسأل الله له من أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.والذي تفضل مشكورا بالإشراف على هذا البحث المتواضع، والوقوف على دقيقه وجليله...

ثم إلى أعضاء لجنة المناقشة على ما بذلوه من جهد في قراءة هذه المذكرة وتوجيهها وجهة علمية صحيحة

سائلا الله تعالى أن يجزي الجميع خير الجزاء.

مقدمة

وتشتمل على الافتتاحية، وأسباب اختيار الموضوع وأهميته، وخطة البحث، والمنهج المتبع.

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ولا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

وبعد: لقد اقتضت مشيئته سبحانه وتعالى أن يخلق فيمن خلق الإنس والجن يمتحنهم بعبادته مدة الحياة الدنيا؛ قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** (56)﴾[1]. حتى إذا كانت الساعة ردوا إلى الله مليكهم ليحاسبهم على ما كسبت أيديهم فشقي أو سعيد؛ قال الله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ** (**105**) **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ** (**106**) **خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** (**107**) **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** (108)﴾[2]. ثم إن الله ما كان ليعذب أحدا حتى يبعث رسولا يبين للناس ما يحذرون؛ قال تعالى: ﴿**مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾ [3] حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل؛ قال تعالى: ﴿ **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ**

---

[1]-سورة الذاريات، الآية:56.

[2]– سورة هود، الآيات: 105..108.

[3]– سورة الإسراء ، الآية:15.

اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)﴾[4] ، وقال: ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [5] .ولله الحجة البالغة، وقد أعذر من أنذر. فأرسل سبحانه وتعالى برسالاته من الإنس والجن رسلا؛ قال تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (130)**﴾[6]. وكان من تمام البيان أن لا يرسل الله رسولا إلا بلسان قومه ليبين لهم؛ قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**... (4)﴾[7]. قال أبو جعفر الطبري: "يقول تعالى ذكره:وما أرسلنا إلى أمة من الأمم، يا محمد، من قبلك ومن قبل قومك، رسولا إلا بلسان الأمة التي أرسلناه إليها ولغتهم، "ليبين لهم"، يقول: ليفهمهم ما أرسله الله به إليهم من أمره ونهيه"[8] .

و اقتضت مشيئته أيضا أن يختم النبوة والرسالة بخليله وصفيه من خلقه محمد صلى الله عليه وسلم؛ قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (40)**﴾[9]. فجاء صلوات ربي وسلامه عليه بالحق وصدق المرسلين. وكان عليه السلام من العرب، فنزل

---

[4]– سورة النساء، الآية:165.

[5]– سورة الأنفال، الآية:42.

[6]– سورة الأنعام، الآية: 130.

[7]– سورة إبراهيم ، الآية:4.

[8]– أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج8، تقديم الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل العطار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1421،1هـ/2001م، ص 5065.

[9]– سورة الأحزاب، الآية: 40.

وحي الله إليه – من قرآن وسنة– بلسان العرب وعلى قدر كلامهم؛ قال الله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)**﴾[10]. قصد الله إلى ذلك قصدا، لا يشك في ذلك أحد، حتى يقطع على المعذرين أعذارهم؛ قال تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44)**﴾[11]. وحتى يعقل من له حظ من لسان العرب عن رب العالمين وقد جاءته موعظته؛ قال الله تعالى:﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(2)**﴾[12].

وعلى الرغم من ذلك اختلف الناس في القرآن؛ على أي شيء يحمل كلام الله تعالى؟ وكان السبب في اختلافهم أنهم وجدوا بعض الألفاظ في القرآن والسنة قد نقلت عن موضوعاتها في اللغة؛ مثل قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ**

[10]– سورة الشعراء، الآيات: 192..195.
[11]– سورة فصلت ، الآية :44.
[12]– سورة يوسف، الآية: 2.

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) ﴾[13]. فقد اتفق أهل التأويل أنما قال ذلك بعض الناس لا كلهم، لبعض المؤمنين – وهم بعض الناس–، أن قريشا– وهي بعض الناس– قد جمعت لهم لحربهم. لم يختلفوا إلا في تسمية من قال ذلك من الناس. قال القرطبي: "اختلف في قوله تعالى: "الذين قال لهم الناس"، فقال مجاهد ومقاتل وعكرمة والكلبي: هو نعيم بن مسعود الأشجعي واللفظ عام ومعناه خاص، كقوله: "أم يحسدون الناس" يعني محمدا صلى الله عليه وسلم. السدي: هو أعرابي جعل له جعل على ذلك، وقال ابن إسحاق وجماعة: يريد بالناس ركب عبد القيس، مروا بأبي سفيان فدسهم إلى المسلمين يثبطونهم، وقيل : الناس هنا المنافقون؛ قال السدي: تجهز النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه للمسير إلى بدر الصغرى لميعاد أبي سفيان فأتاهم المنافقون وقالوا: نحن أصحابكم الذين نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا، وقد قاتلوكم في دياركم وظفروا، فإن أتيتموهم في ديارهم فلا يرجع منكم أحد. فقالوا: " حسبنا الله ونعم الوكيل"، وقال أبو معشر: دخل ناس من هذيل من أهل تهامة المدينة، فسألهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي سفيان فقالوا: "قد جمعوا لكم" جموعا كثيرة "فاخشوهم" أي خافوهم واحذروهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، فالناس على هذه الأقوال على بابه من الجمع، والله أعلم"[14] .

لهذا الذي سبق حق لكل باحث وطالب للحقيقة أن يتساءل : على أي شيء تحمل ألفاظ القرآن والسنن، بعد أن ثبت وبيقين أن بعض ألفاظ الذكر قد نقلت عن موضوعاتها ومراتبها في اللغة؟

و يكفي الآن أن نعلم أن الناس اختلفوا في هذه المسألة على مذاهب.

---

[13]– سورة آل عمران، الآيتان:173– 174.

[14]– أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،تح:أحمد عبد العليم البردوني، ج4، دار الشعب، القاهرة، ط2،1372هـ/1952م، ص 279–280.

وفي هذا البحث – إن شاء الله– عرض لوجهة نظر علم من أعلام الإسلام من أهل الأندلس هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي الذي كانت له اختياراته في اللغة والتي أثرت وبشكل مباشر على آرائه في التفسير.

ولاختيار هذا الموضوع أعني – اختيارات أبي محمد في اللغة وأثرها على آرائه في التفسير مقارنة بآراء غيره – أسبابه؛ منها: أن التراث العربي الإسلامي الأندلسي ورغم عبقريته إلا أنه وحتى الآن لم يلق من الاهتمام والعناية ما هو له أهل، و**نحن أهل المغرب** أولى من يقوم بهذا الأمر الجلل. ثم إن من يستنطق ما وصل إلينا من تواليف أبي محمد يجد أن لهذا الرجل آراء في التفسير مثيرة للجدل بناها على اختيارات له في اللغة، هذا من جانب. ومن جانب آخر تجد لهذه الآراء في التفسير – والتي تفرقتها مؤلفاته– نظرية ومذهبا يجمعها. ثم إن الحقيقة التي لا شك فيها عند أحد أن حفظ ألفاظ القرآن الكريم ليس بأولى من حفظ معانيه؛ قال الله تعالى:﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)**﴾[15].قال صاحب فتح القدير:" قال الشعبي:رحل مسروق في تفسير آية إلى البصرة، فقيل له إن الذي يفسرها رحل إلى الشام، فتجهز ورحل إلى الشام حتى علم تفسيرها وقال إياس بن معاوية: مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من عند مليكهم ليلا وليس عندهم مصباح، فتداخلتهم روعة ولا يدرون ما في الكتاب. ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرؤوا ما في الكتاب"[16]. وقد

[15]– سورة ص، الآية: 129.

[16]– محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج1، عالم الكتب، د.ط، ، ص 14.

جاء في المثل : لا تعطني سمكة ولكن علمني كيف أصطاد. وفي هذا البحث – إن شاء الله تعالى– قواعد كلية تعين على فهم القرآن ومعرفة تفسيره والوقوف على معانيه لعلها تنير دروبا كانت إلى الساعة مظلمة موحشة.

لكل هذا ولغير هذا، يمكنني أن أقول – وبدون أية مزايدة – أن موضوع هذا البحث الذي بين أيدينا مهم ومهم جدا. خاصة وأنه لا يعرض لبعض الآراء في تفسير النصوص فقط ولكن لنظرية ومذهب متكامل ومختلف ومتميز في التفسير.

هذا، وقد أشار إلى موضوع اختيارات ابن حزم الأندلسي اللغوية وإلى أهميته الدكتور إحسان عباس في تقديمه لكتاب الإحكام في أصول الأحكام طبعة منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت 1400هـ/1980م، فكان ذلك حافزا لي على ركوب الصعب والذلول لخوض غمار هذا البحث.

وقد ارتأيت – بعون الله وحسن توفيقه– أن أجمع بين اللغة والدراسات القرآنية– كما هو عنوان المشروع– فأدرس اختيارات الرجل في اللغة وكيف أثرت على آرائه في التفسير مقارنة بآراء غيره من أهل التأويل.فمن المسلمات أنه لا يمكن،لا علميا ولا عمليا، الفصل بين اللغة والتفسير أو اللغة والدراسات القرآنية.إذ يستحيل فهم القرآن والوقوف على معانيه لمن لا علم له باللسان العربي،و دون تحصيل لغة القرآن وعلومها. هذا مما لا شك فيه عند أحد.

هذا وقد قادتني طبيعة هذا البحث إلى تقسيمه إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة.

فذكرت في المقدمة– بعد الافتتاحية –:أسباب اختيار الموضوع وأهميته وخطة البحث، والمنهج المتبع، وشكر وتقدير.

وذكرت في الفصل التمهيدي – وهو الفصل الأول– الموسوم بان حزم الأندلسي ومنهجه في تفسير النصوص: عصر ابن حزم الأندلسي، وترجمة مختصرة لحياته، ومنهجه في تفسير النصوص.

وفي الفصل الثاني الموسوم بالحقيقة والمجاز: اختيارات أبي محمد في الحقيقة والمجاز، وحمل الألفاظ على الحقيقة ابتداء، وحمل الألفاظ على المجاز بدليل.

وفي الفصل الثالث الموسوم بالعموم والخصوص: اختيارات أبي محمد في العام والخاص، وحمل الخاص – وهو جزئي اللفظ– على الخصوص والعام – وهو كلي اللفظ– على العموم ابتداء، وحمل الخاص على العموم والعام على الخصوص بدليل.

وفي الفصل الرابع الموسوم بالذكر والحذف: اختيارات أبي محمد في الزيادة والحذف، وحمل الألفاظ على الذكر ابتداء، وحمل الألفاظ على الحذف بدليل.

وفي الخاتمة: ذكرت بعض نتائج هذا البحث، كما حاولت أن أجيب على سؤال مفاده: هل وجد منهج أبي محمد طريقه إلى التفسير عموما أم ظل دفين كتبه وقد طويت – إلا في النادر القليل– بعد موته رحمه الله تعالى؟

كما حاولت جهدي أن ألتزم في هذا البحث بالمنهج الذي اخترته له؛وهو المنهج التحليلي المقارن. أذكر اختيارات ابن حزم الأندلسي وآرائه في التفسير – متحاشيا إلا في النادر القليل أن أقدم بين يديه–، وأذكر آراء غيره من باب بضدها تتميز الأشياء، كل ذلك بشيء من التحليل متقيدا في ما وصفت من أقوال جميعهم على النقل من كتبهم ما وجدت إلى ذلك سبيلا. وبالمناسبة فقد وفقني الله سبحانه وتعالى،بمنه وفضله ومن غير حول مني ولا قوة إلا به،

فوقفت على أهم كتب أبي محمد على الرغم من ندرتها. فالحمد والشكر الجزيل لله أولا وأخيرا.

هذا وقد اخترت عن قصد في كتابتي لهذا البحث الاختصار على التطويل، والتبسيط على التعقيد، كما هي التوصيات في البحوث الأكاديمية لعل الله عز وجل أن ينفع به.

وأعتذر ابتداء لأعضاء هيئة المناقشة ولكل مطلع على هذا البحث المتواضع عما وقع فيه من السهو والخطأ فإنه لا يعرى كتاب منهما حاشا كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. ولست أقول ذلك تواضعا بل كما قال الله تعالى : ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)**﴾[17]. فصدق الله العظيم، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

[17]– سورة النساء، الآية:82.

الفصل الأول:

ابن حزم الأندلسي و منهجه في تفسير النصوص

في هذا الفصل التمهيدي، وقبل أن يجد بنا السير في هذا البحث، أود الكلام بعون الله وحسن توفيقه – بعد التوطئة –على نقاط ثلاثة:عن عصر ابن حزم وزمنه الذي نعته بقوله: " هذا الزمان الذي قد ذهب خيره وأتى شره" ؛وهو زمن الفتنة البربرية وبداية عصر ملوك الطوائف .و ترجمة مختصرة لحياته رحمه الله تعالى.و منهجه في تفسير النصوص المقدسة – المحكمة منها دون المنسوخة–.

توطئة:

في أيام أبي العباس أبو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم (86- 95هـ) فتحت الأندلس لتصبح ولاية أموية، كان ذلك في سنة اثنتين وتسعين من الهجرة، دخلها طارق بن زياد ثم موسى بن نصير والي إفريقية[1].

وبعد كرور دولة بني أمية بقتل آخر ملوكهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الملقب بالحمار سنة 132 هـ ، وفي ولاية أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس – ثاني ملوك بني العباس، (136- 158 هـ) وكان ولي بعد أخيه السفاح (132- 136هـ)[2]، دخل أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان – الذي فر من العباسيين بدمه- الأندلس[3] .

فحارب – وقد قامت معه اليمانية- واليها يوسف بن عبد الرحمن بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري فهزمه ودانت له الأندلس، وهو المعروف بعبد الرحمن الداخل صقر قريش، فملكها سنة 138 هـ[4] وملكها بنوه من بعده.

وما زال الأمر كذلك حتى ولاية أبي الوليد هشام بن الحكم بن عبد الرحمن وكان عمره إذ ولي عشرة أعوام و أشهر دامت ولايته قريبا من أربعين سنة (366 – 403هـ)[5] فما ملك ولا حكم ولا كان له من الملك ولا في الحكم ناقة ولا جمل، ولكن تولى العامريون – في أيامه- الملك والحكم؛ أولهم العالم الأديب أبو عامر محمد بن أبي عامر بن محمد الملقب بالحاجب المنصور ثم

---

[1]- ينظر: إحسان عباس، رسائل ابن حزم الأندلسي الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1981م، ص 126.. 128.

[2]- ينظر :المصدر نفسه، ص145.. 148.

[3]- ينظر :المصدر نفسه، ص 191.

[4]- ينظر :المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5]- ينظر :المصدر نفسه، ص 196.

ابنيه من بعده: عبد الملك بن محمد الملقب بالمظفر فعبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر إلا أن هذا الأخير كان نحسا وشؤما على العامريين ؛ إذ حمل هشاما المؤيد على أن يعهد إليه بالخلافة من بعده، فأثار حافظة الأمويين وغير الأمويين[6]– . وقد كان الحاجب المنصور والده قد هم بذلك ولكنه كع عنه مخافة أن يحرك ساكنا–[7] وهو ما حدث فعلا ؛قال صاحب نفح الطيب: "ونقم عليه أهل الدولة ذلك، فكان فيه حتفه، وانقراض دولته ودولة قومه، وكان أسرع الناس كراهة لذلك الأمويون والقرشيون، فغصوا بأمره، وأسفوا من تحويل الأمر جملة من المضرية إلى اليمنية، فاجتمعوا لشأنهم، وتمشت من بعض إلى بعض رجالاتهم، وأجمعوا أمرهم في غيبة من المذكور ببلاد الجلالقة في غزاة من صوائفه، ووثبوا بصاحب الشرطة فقتلوه بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وخلعوا هشاما المؤيد. وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله من أعقاب الخلفاء، ولقبوه المهدي بالله، وطار الخبر إلى عبد الرحمان الحاجب ابن المنصور بمكانه من الثغر، فانفض جمعه، وقفل إلى الحضرة مدلا بمكانه، زعيما بنفسه، حتى إذا قرب من الحضرة تسلل عنه الناس من الجند ووجوه البربر ولحقوا بقرطبة، وبايعوا المهدي القائم بالأمر، وأغروه بعد الرحمان الحاجب، لكونه ماجنا مستهترا غير صالح للأمر، فاعترضه منهم من قبض عليه، واحتز رأسه، وحمله إلى المهدي وإلى الجماعة، وذهبت دولة العامرين كأن لم تكن ولله عاقبة الأمور"[8]. فألقت الفتنة بجرانها وأرخت عزاليها. فمن حينها بدأت ما اصطلح على أن سماه أهل العلم بالتاريخ الفتنة البربرية. وكان سبب الفتنة أن "رؤساء

[6]– ينظر: إحسان عباس، رسائل ابن حزم الأندلسي الجزء الثاني، ص 196.

[7]– المصدر نفسه، ص 67.

[8]– أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، تح : د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ط، 1388هـ/1968م، ص 426.

البربر وزنانة لحقوا بالمهدي لما رأوا من سوء تدبير عبد الرحمن وانتقاض أمره، وكانت الأموية تعتد عليهم ما كان من مظاهرتهم العامريين، وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم، فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون، ولولا ما لهم من العصبية لاستأصلهم الناس، ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة بكراهتهم، وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلحوا، ورد بعض رؤسائهم في بعض الأيام من باب القصر، فانتهبت العامة دورهم، وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم، فاعتذر إليهم وقتل من أتهم من العامة في أمرهم، وهو مع ذلك مظهر لبغضهم، مجاهر بسوء الثناء عليهم، وبلغهم أنه يريد الفتك بهم، فتمشت رجالاتهم، وأسروا نجواهم، واشتوروا في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر، وفشا في الخاصة حديثهم، فعوجلوا عن مرامهم ذلك، وأغرى بهم السواد الأعظم، فثاروا بهم، وأزعجوهم عن المدينة، وتقبض على هشام وأخيه أبي بكر، وأحضروا بين يدي المهدي، فضرب أعناقهما"[9].

فاضطرب الأمر على بني أمية وساءت الأوضاع جدا حتى اقتسم ملوك الطوائف خطة الأندلس ...

وفيما يلي عرض موجز للظروف السياسية والاجتماعية و الثقافية أيام الفتنة البربرية وبداية عصر ملوك الطوائف.

[9]– أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص 427.

المبحث الأول:

عصر ابن حزم الأندلسي

كان الوضع السياسي بالأندلس طوال كل هذه المدة غير مستقر وذلك لتنافس أهلها الملك.

فقد تولى الأمر خلال الفتنة البربرية- وهي نيف وعشرون سنة فقط- تسعة من الرجال؛ قام بعضهم على بعض حاشا ثلاثة منهم فقط؛هم: هشام المؤيد والقاسم بن حمود المأمون وعبد الرحمن بن هشام المستظهر. وقتلوا كلهم حاشا واحدا منهم فقط، هو هشام بن محمد المعتد، وهو آخرهم[10] .

ثم خلف من بعدهم على الأندلس ملوك الطوائف- الذين اقتسموا خطة البلاد-. وفيهم قال أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يزهدني في أرض أندلس سماع مقتدر فيها و معتضـــــد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد.

وفي هذا يقول صاحب المعجب:"وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية، فان أهلها تفرقوا فرقا وتغلب في كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه و تقسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى بالمعتضد، وبعضهم تسمى بالمأمون، وآخر تسمى بالمستعين، و المقتدر، و المعتصم، والمعتمد، و الموفق، و المتوكل، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية..." [11].

على أن الأندلس كانت – غالبا- قبل الفتنة حرما أمن فيه سكانها على دمائهم وأعراضهم وأموالهم؛ مسلمون- من عرب وبربر و صقالبة – وذميون – من يهود ونصارى- وإماء وعبيد- من سبايا الحروب-. حتى إذا كانت الفتنة

---

[10]- ينظر: إحسان عباس، رسائل ابن حزم الأندلسي الجزء الثاني، ص 196، 203.

[11]-عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار أهل المغرب، تح: أ. محمد سعيد العريان، القاهرة، د.ط، 1383هـ/1963م، ص123.

عاد الاعتداء على الأموال والأعراض والدماء هو القاعدة والسلامة هي الاستثناء، فسفك الدم الحرام بالظنون ولأوهن الأسباب، وانتهكت الأعراض، ونهبت الأموال، وأشد من عانى من ذلك المسلمون، حتى عادوا ذمة لأهل الكفر من يهود ونصارى.

فحلت الرذيلة محل الفضيلة، والمعصية محل الطاعة، و الجرأة على الله محل التقوى.

ولنقف على حجم المأساة يومئذ هذه بعض شهادات لأبي محمد يصف فيها بعض ظروف الأندلس أثناء الفتنة و بعدها؛ قال رحمه الله:"وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة و ملابسة الناس بها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض. فهذا الأمر امتحنا به نسأل الله السلامة و هي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب وعمدة ذلك إن كل مدبر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع في الأرض بفساد للذي ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم و إباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطين لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية و الضريبة من أهل الإسلام معتذرين بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاد أمرهم و نهيهم "[12]. وقال رحمه الله:" وأما ما سألتم عنه من وجه السلامة في المطعم و الملبس والمكسب: فهيهات- أيها الإخوة – إن هذا لمن أصعب ما بحثتم عنه، و أوجعه للقلوب، وآلمه للنفوس.

[12]- ابن حزم الأندلسي، التلخيص لوجوه التخليص، تح:عبد الحق التركماني، مركز البحوث الإسلامية- دار ابن حزم، ط1، 1433 هـ/ 2003م، ص149-150.

وجوابكم في هذا أن الطريق هاهنا طريقان:

طريق الورع، فمن سلكه فالأمر– والله– ضيق حرج. وبرهان ذلك أني لا أعلم –لا أنا و لا غيري – بالأندلس درهما حلالا، ولا دينارا طيبا يقطع على أنه حلال، حاشا ما يستخرج من وادي لاردة من ذهب، فإن الذي ينزل منه في أيديهم[يعني أيدي المستخرجين له] بعدما يؤخذ منهم ظلما، فهو كماء النهر في الحل و الطيب، حتى إذا ضربت الدراهم، و سبكت الدنانير، فاعلموا أنها تقع في أيدي الرعية فيما يبتغونه من الناس من الأقوات التي لا تؤخذ إلا منهم، ولا توجد إلا عندهم، من الدقيق والقمح والشعير و الفول و الحمص، و العدس واللوبيا و الزيت/ و الزيتون، والملح و التين و الزبيب و الخل و أنواع الفواكه و الكتان و القطن و الصوف و الغنم والألبان والجبن و السمن و الزبد و العشب و الحطب– فهذه الأشياء لا بد من ابتياعها من الرعية عمار الأرض و فلاحيها ضرورة– فما هو إلا أن يقع الدرهم في أيديهم، فما يستقر حتى يؤدوه بالعنف ظلما و عدوانا بقطيع مضروب على جماجمهم كجزية اليهود و النصارى، فيحصل ذلك المال المأخوذ منهم بغير حق عند المتغلب عليهم ، وقد صار نارا، فيعطيه لمن اختصه لنفسه من الجند الذين استظهر بهم على تقوية أمره، وتمشية دولته ، و القمع لمن خالفه، والغارة على رعيته من خرج عن طاعته، أو رعية من دعاه إلى طاعته، فيتضاعف حر النار، فيعامل بها الجند التجار و الصناع، فحصلت بأيدي التجار عقارب و حيات و أفاعي، ويبتاع بها التجار من الرعية، فهكذا الدنانير و الدراهم كما ترون عيانا دواليب تستدير في نار جهنم، وهذا ما لا مدفع فيه لأحد، ومن أنكر ما قلنا بلسانه فحسبه قلبه، يعرفه معرفة ضرورية، كعلمه أن دون غد اليوم".[13] ويكفي من التعليق على هذه الأقوال حكايتها.

[13]– ابن حزم الأندلسي، التلخيص لوجوه التخليص، ص 151، 152.

وفي ظروف لم يأمن فيها العلماء الربانيون على أنفسهم ولا على أعراضهم ولا على مصادر رزقهم، وفي وسط كان يخلو من أدنى مبادئ الحرية الفكرية – وكلنا يذكر ما كان يحدث من حرق كتب بعينها علانية، منها كتب أبي محمد. وفي ذلك يقول رحمه الله:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطاس بل هو في صـــدري
يسير معي حيث استقلت ركائبـــــي و ينزل إن أنزل ويدفن في قبـــــــري
دعوني من إحراق رق وكاغـــــــد و قولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلا فعودوا في الـــــــــمكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ســـــــــتر
كذاك النصارى يحرقون-إذا عــلت أكفهم – القرآن في مدن الـــــــــثغر[14]

في هذه الظروف صار غالبا لا يفتي إلا من حكم أهواء الولاة لا نصوص الشريعة؛ قال أبو محمد – يحذر من هؤلاء-:" فلا تغالطوا أنفسكم، و لا يغرنكم الفساق والمنسوبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم..."[15] .

فكان بحق زمانا ذهب خيره و أتى شره[16]، عم فيه الفساد و أوعب. كل ذلك بما كسبت أيدي الناس؛ أمراءهم وعلماءهم وعامتهم إلا من رحم ربك.والأندلس- التي ربوا في حجرها وشربوا من لبانها وقد كانت لهم أما- يومها طريحة الفراش لمصابهم...

---

[14]– شمس الدين الذهبي، سير النبلاء جزء خاص بترجمة الإمام ابن حزم الأندلسي، تح: د. سعيد الأفغاني، د.ط، ص44 .

[15]– ابن حزم الأندلسي، التلخيص لوجوه التخليص، ص151.

[16]– إحسان عباس، رسائل ابن حزم الأندلسي الجزء الأول، ص 297.

المبحث الثاني:

ترجمة مختصرة لحياة ابن حزم الأندلسي

و السبب في اختصار ترجمته أن الكثير من المؤلفات – الحديثة– وبلغات مختلفة، تناولت شخص أبي محمد بالبحث والدراسة.

وعن اسم أبي محمد ونسبه يقول صاحب المعجب:" أبو محمد الذي يحدث عنه الحميدي: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي"[17]. ثم قال رحمه الله: "قرئ علي نسبه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه"[18] .وإنما ذكرت كلامه هذا لأنه أعلى ما يكون من سند، وإن كان وجادة. فقد اختلف الناس في نسبه؛ فقال بعضهم: هو عربي صليبة، وقال بعضهم: بل هو إسباني أسلم آباؤه بعد الفتح، وقال بعضهم: بل هو فارسي الأصل كما ذكر رحمه الله. ولرفع الإشكال أحيل المستزيد على الكتب التالية– إذ ليس هذا من صلب موضوع هذه المذكرة– :جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس، سير أعلام النبلاء، أخبار الحكماء، معجم الأدباء، وفيات الأعيان، العبر في أخبار من غبر، شذرات الذهب، نفح الطيب وغيرها.

وفي ربض الزاهرة، في الجانب الشرقي من مدينة قرطبة قصب الملك ببلاد الأندلس، وفي القصر الذي بابه على الشارع الآخذ من النهر الصغير إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة الملكي[19]،" قبل طلوع الشمس، وبعد سلام الإمام من صلاة الصبح، آخر ليلة الأربعاء، آخر يوم من شهر رمضان المعظم سنة

---

[17]– عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار العرب، ص 93.

[18]– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[19]– إحسان عباس، رسائل ابن حزم الأندلسي الجزء الأول، ص 199.